أزمة الفكر العربي

بقلم الدكتور محمود يوسف زايد

مشاكلنا وازماتنا متعددة متفاوتة الشأن والخطورة، لكن اشدها خطورة ، واكثرها الحاحا ، وادعاها الى الاهتمام وبذل الجهود الصادقة هي ازمة المفكر العربي المعاصر . فالمفكر عقل الامة المدبر يحيي ماضيها ، ويفهم حاضرها ، ويخطط لمستقبلها عن وعي وادراك وشعور بالمسؤولية منبثقين من وجدانه وتفكيره .

ويمكن رد هذه الازمة الى عاملين رئيسيين : اولهما ان المفكر العربي بدأ منذ قيام الثورة المصرية يجتاز مرحلة حاسمة من تاريخه يتوقف على مصيرها لا مستقبل الامة العربية فحسب ، بل ووجودها كأمة عربية ؛ وثانيهما هو انه ما زال ينتهج اساليب ويعتنق مفاهيم ويتأثر بأفكار لا تتفق واهدافه التي يأمل بتحقيقها ان يخرج من ازمته مرفوع الراس وافر الكرامة ، مستقل الشخصية، منفتحا على العالم يأخذ منه ويعطيه في تسامح وحرية وثقة بالنفس .

ولتقدير خطورة المرحلة الفكرية الحاسمة التي يجتازها المفكر العربي ، وابراز الاساليب والمفاهيم والافكار مما ينبغي تعديله او تغييره، يحسن بنا ان نعرض لنشاطه في فترة ما قبل الثورة المصرية .

تبدأ هذه الفترة في السنوات الختامية من القرن الثامن عشر الميلادي حين بدأ المجتمع العربي يتلقى مؤثرات اوروبية ثقافية فكرية وتكنولوجية ومسلكية ويستجيب لها . وقد اتسمت استجاباته الاولى في الغالب بالدهشة والتقدير وحب الاقتباس لجوانب عدة من مظاهر الحضارة الغربية (١) .

وكانت محاولة محمد علي باشا لادخال اصلاحات في مصر تحتذي المثال الاوروبي اول عمل منظم في البلاد العربية لاقتباس حضارة الغرب على نطاق واسع. وعلى الرغم من انهيار كثير من اصلاحاته ، الا ان تجربته ظلت مثالا يحتذيه خلفاؤه ، ومصدر ايحاء والهام للاجيال الاسلامية عامة والمصرية خاصة . وقام اسماعيل باشا بمحاولة مماثلة آتت بعض الثمار ، ولكنها جرت فيما جرته على مصر الاحتلال الانجليزي سنة ١٨٨٢ .

ويعين لنا عهد اسماعيل والسنوات القليلة التي تلته نقطة تحول في التفكير الاسلامي والعربي وخاصة في موقف اهله من الغربيين وحضارتهم . فقد اخذ المفكر منهم يرتد الى نفسه من ناحية ، ويحاول تحديد موقفه من التيار الثقافي الغربي من ناحية اخرى .

بدأ هذا المفكر يتساءل كيف وصل به الحال من ماض حافل ببطولاته وامجاده الى حاضر يخضع فيه لسلطان امم كانت قبل بضعة قرون فقط لا تستحق عنده حتى الذكر . وقد فجر هذه المأساة في نفوسهم اثنان من ائمة المسلمين وهما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده اللذان يعتبران من اعظم مؤسسي النهضة الاسلامية والعربية الحديثة(٢) .

وكانت الاخطار التي تهدد العالمين العربي والاسلامي في نظر المفكرين من نوعين: الاستعمار وبخاصة الاستعمار السياسي ، وخطر ذوبان الشخصية العربية والاسلامية وفقدان مثلها وقيمها ، وتقويض معتقداتها الدينية بسبب غزو الثقافة الاوروبية المثقفين واقبالهم على تقليد الغرب.

فصب اعلام الفكر جام غضبهم على من يقلد الغرب لا عن تفهم ونظر ، بل عن عمى يقف به عند القشور دون اللب ، والعرض دون الجوهر .(٣) وعملوا في الوقت ذاته على اعادة الثقة الى النفوس بالتأكيد على ان ضعف الامة الاسلامية هو مما يسهل التغلب عليه ، وان الدين الاسلامي غير مسؤول عن تأخر المسلمين ، فما « زعموه في المسلمين من الانحطاط ، والتأخر — ليس منشؤه هذه العقيدة — ولا غيرها من العقائد الاسلامية — ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه ، بل اشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار . » (٤)

كما اكد هؤلاء الكتاب بأن الاسلام لا يتعارض مع العلم الحديث .

وانبرى الكتاب والادباء الى الرد على المبشرين والمستشرقين، وخاصة عندما انتقد اللورد كرومر الاسلام كنظام اجتماعي وانتقد مركز المرأة المسلمة . (٥) ووصف كاتب مصري جهود المصريين في الرد على انتقادات كرومر وغيره ممن تعرضوا للاسلام بقوله :

« كم انفق فيها المصريون من الجهد والوقت حتى اوشكت قضية الدفاع عن الدين ان تكون مفضلة في مصر على قضية الدستور نفسه ، وقضية الجلاء نفسه. كنت لا تفتح جريدة او كتابا مؤلفا او آخر مترجما او تصغي الى خطيب في محفل من المحافل او ناد من الاندية حتى يكون الدفاع عن الاسلام ضد اعدائه من الاوروبيين جزءا هاما من هذا الكتاب او الحديث او الخطبة . »(٦)

---

١) انظر مثلا موقف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من اعمال الفرنسيين في مصر في محمود الشرقاوي ، مصر في القرن الثامن عشر ، الجزء الاول ط٢ (القاهرة ، ١٩٥٧) ص ١٧٨ — ١٨٩ .

٢) انظر مثالا من صرخاتهما التي اطلقاها ابى على حال المسلمين: جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، العروة الوثقى (دار العرب ، القاهرة ١٩٥٧) ص٩ وما بعدها .

٣) انظر مثلا محمد باشا المخزومي ، خاطرات جمال الدين الافغاني ، (بيروت ١٩٣١) ص ٣٢٧ وما بعدها .

٤) المصدر السابق : ص ٣٨٦ .

٥) لورد كرومر ، مصر الحديثة (نيويورك ١٩٠٨) ج٢ ص. ١٣٤ — ١٣٥ ، ٢٢٨ — ٢٢٩ .

٦) عبد اللطيف حمزة ، الصحافة والادب في مصر (معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤ — ١٩٥٥) ص ص ١٢٨ — ١٢٩ .

وكان الميدان الذي استأثر بشطر كبير من تفكير العرب هو الميدان السياسي . وان تميز تفكيرهم فيه بشيء فهو بنزعته الى التحرر من ربقة الاستعمار ومن الاستبداد السياسي على اطلاقه . وكان هذا شيئا طبيعيا بالنظر الى ما فطر عليه الانسان من نزعة الى الاستقلال بشؤونه ، والعمل بوحي من ارادته . وكان يغذى هذا الاتجاه ايمان المسلم بأن :

« الديانة الاسلامية وضع اساسها على طلب الغلب والشوكة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بهـا صاحب الولاية على تنفيذ احكامها ... »(٧) وقوى النزعة الى التحرر ايضا تدفق الافكار السياسية الغربية ، وخاصة افكار الثورة الفرنسية ، على العالم العربي بطريق ترجمتها الى العربية ، او بطريق بعثات الطلاب العرب الى اوروبا ، او الاحتكاك المباشر بين الاوروبيين والعرب .

وقد اتخذت نزعة التحرر هذه اتجاهات سياسية تتميز بمعالم واضحة اولاها الدعوة الى الجامعة الاسلامية التي اقترنت باسم باعثها الحديث جمال الدين الافغاني ، والاتجاه القومي العربي المحلي والاتجاه القومي العربي العام .

فلما وضح للعرب ان الوحدة الاسلامية في ظل العثمانيين باتت متعذرة اخذ اتباع الاتجاهين القوميين في تزايد . وكانت مصر اذ ذاك ابرز الامثلة على الاتجاه القومي المحلي ، بينما كانت سوريا والعراق والجزيرة تمثل الاتجاه القومي العربي العام الذي اخذ يدعو الى تجسد سياسي في كيان عربي مستقل موحد . وقد اوضح عبد الغني العريسي في مؤتمر باريس لسنة ١٩١٣ معالم هذا الاتجاه الاخير بقوله :

« ... ان العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة عنصر ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسي ، فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم ، على رأي علماء السياسة دون استثناء ، حق جماعة ، حق شعب ، حق امة ... »(٨)

واقترن الوعي القومي باتجاهيه بيقظة ثقافية انتهجت سبيلين واضحين وهما اولا ، العمل على نشر التراث العربي الديني والثقافي ، وتمجيد مآتي العرب الحضارية وفضلها على النهضة الاوروبية في مطلع العصور الحديثة ، والتمسك باللغة العربية ونشر آدابها من شعر ونثر وتيسيره للناشئة . وثانيا ، الاقبال على الاقتباس من نتائج الفكر الاوروبي وخاصة الآداب الفرنسية .

وغلبت على الفكر العربي في الميدان الاجتماعي ثلاثة اتجاهات رئيسية ، متداخلة احيانا ، وهي الاتجاه المحافظ ، والاتجاه الاصلاحي التوفيقي ، والاتجاه التجديدي . وكانت هذه الاتجاهات في اساسها ردود فعل لانفتاح المجتمع العربي على الحضارة الغربية بافكارها وقيمها وعاداتها اهلها ومنجزاتها التكنولوجية.(٩)

وكان اصحاب الاتجاه المحافظ ، في الغالب ، يرون ضرورة اتباع السلف في اخلاقهم وتقاليدهم وفكرهم ، ويحضون على التمسك بالدين واتباع اوامره ، واجتناب نواهيه . وذهبوا الى انهم يستطيعون اقتباس العلوم الحديثة والتكنولوجيا الغربية دون ضرورة للاخذ بفلسفتهم المسيطرة على علومهم . فالحضارة الاوروبية في نظرهم مادية في جوهرها ، اما حضارتهم فهي حضارة روحية .

اما الاصلاحيون التوفيقيون ، الذين اجتذبوا غالبية اهل الفكر الى صفوفهم ، فقد قالوا بمزج التراثين الغربي والعربي مستندين الى تجربة العرب الاول حين تمثلوا الثقافات المجاورة التي اقتبسوها ، وخرجوا العالم بثقافة عربية اسلامية اصيلة . واشترط هؤلاء ان تكون عملية المزج قائمة على منهج انتقائي يأخذ من التراثين ما يصلح وحاجات العصر .

ورأى المجددون ضرورة اقتباس الحضارة الاوروبية برمتها لاعتقادهم بانه لا فرق هناك بين العقل العربي والعقل الاوروبي ، وغلا بعضهم في تمجيد الحضارة الاوروبية والسخرية من تقاليد قومهم ومعتقداته . (١٠)

٧) محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (ج١ ، ط ١٩٣١) ص ص ٣١٤ – ٣١٥ .

٨) ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية (ط٤ بيروت ، ١٩٥٩) ص ص ٢١٦ – ٢١٧ .

٩) راجع بصدد هذه الاتجاهات : جميل صليبا ، محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام واثرها في الادب الحديث (معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨) ص ص ١٢٧ – ١٥٠ ، محمد حسنين ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر (ج١ ، القاهرة ، ١٩٥٤) محمود يوسف زايد ، « العرب المحدثون وازمة القيم » العلوم ، عدد اذار ١٩٦١ ، بيروت ، ص ص ٢ – ٣ .

١٠) محمد حسين ، المصدر السابق ، ص ص ٣٤٢ – ٣٤٥ .

نرى من هذا ان اغلبية المفكرين وقفوا حتى ما بعد الحرب العالمية الاولى موقف الدفاع عن عقائدهم الدينية وتاريخهم وتقاليدهم ، وانهم ذهبوا الى ضرورة التوفيق بين التراث العربي الاسلامي والحضارة الغربية ، وانهم اجمعوا على ضرورة اقتباس التكنولوجيا الغربية ، وان الاتجاه القومي العربي غلب في الحقل السياسي وحقق انتصارات لا بأس بها .

بيد ان فترة ما بين الحربين العالميتين والسنين القليلة التالية حتى الثورة المصرية كانت امتحانا عسيرا للمفكر العربي . فقد استهل المفكرون هذه الفترة بغمرهم بعض التفاؤل بصدد الوصول الى حكم انفسهم بأنفسهم بطريق المفاوضة مع الحكومات الغربية ، وترسيخ النظم الديمقراطية الغربية . ونشط انصار الاصلاح والتجديد نشاطا ملحوظا في جميع مجالات الفكر . الا ان تفاؤلهم لم يلبث في العقد الرابع من هذا القرن ان اخذ يتضاءل بسبب عجز الهيئات الحاكمة عن تحقيق التجربة الديمقراطية ، ونزاعات الاحزاب السياسية التي كانت في الاغلب شخصية، وقصور المجالس النيابية عن تمثيل الشعب بجميع طوائفه . ومكنت الحضارة الاوروبية بوسائلها التكنولوجية لا من زيادة الهوة بين الاغنياء والفقراء فحسب ، بل وفي ابرازها بشكل اخذ يولد الشعور بالتذمر ، والتمرد على الاوضاع الاجتماعية . وزاد من شدة المحنة ان العالم العربي اصبح مسرحا للصراع الايديولوجي (الفلسفي الاجتماعي) بين الشرق والغرب ، وبدا للبعض وكان الشباب الذين استطاعوا حتى ذلك الحين الاحتفاظ بشخصياتهم الفكرية والاجتماعية العربية في وجه تدفق المؤثرات الغربية سيقعون حتما ضحية لاحدى الايديولوجيات ، وخاصة اليسارية .

واحرج الفئة المجددة من انصار الحضارة الاوروبية فشل الهيئات الحاكمة فيما بين الحربين العالميتين في تحقيق الاستقلال المنشود ، واقدام بريطانيا على التمكين للصهيونية في فلسطين . واخذ الغرب بوجه عام يفقد انصاره ، كما اخذ نسق الفكر الاجتماعي يتحول من محافظ ومصلح ومجدد الى يمين ويمثله الاخوان المسلمون ، ووسط يمثله القوميون العرب ، ويسار يمثله الشيوعيون . وساعد اليسار على التاثير في مجرى الفكر لا فشل التجربة الديمقراطية فحسب ، بل واستدعاء اليساريين لحمل الشعارات القومية ومناصرة اصحابها .

وكانت مصيبة العرب بقيام اسرائيل اشبه بناقوس الخطر الذي يقرع آخر تحذير له ، فلم يبق اذ ذاك شك في ان تثبيت الصهيونية في قلب العالم العربي عملية تنطوي لا على تهديد دين او فكر او تقاليد فحسب ، بل وعلى تقويض الوجود العربي ذاته . ووضح كذلك ، وخاصة بعد فشل الجامعة العربية في مواجهة الخطر الصهيوني وقوى الاستعمار التي تسنده ان المتنفذين من حكام وملوك وامراء واقطاعيين لن يقووا على تحقيق الوحدة العربية ولا على تحرير جميع بلادهم من الاستعمار . وكان لاتفاق امريكا وروسيا على اقامة اسرائيل اثر كبير في توجيه السياسي العربي توجيها واقعيا ادرك معه انه لا سبيل امامه غير الاعتماد على النفس .

وهنا نقطة انطلاق المرحلة الحاضرة في نشاط الفكر العربي . بدات هذه المرحلة مرة اخرى بارتداد المفكرين الى انفسهم واعادة النظر في كل مرافق تفكيرهم وحياتهم ، ثم بتحديد موقفهم لا من الصراع الايديولوجي فحسب ، بل ومن الدول الكبرى ايضا .

وكان العامل الحاسم في تشكيل الاتجاهات السائدة في الفكر العربي في هذه المرحلة هو الثورة المصرية وخاصة بعد ان استطاعت ان تتغلب على اهم العقبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها . فكان اول منجزاتها الحاسمة هو نفخ روح جديدة في الاتجاه القومي العربي العام وتزعمه . وقال في ذلك جمال عبد الناصر :

« ان مصر كما ترى كانت خارج الكفاح العربي . وبعد الثورة اكتشفت مصر نفسها ومكانها ، وكان عليها ان تعود الى قلب الكفاح العربي . ثم دفعتنا ظروف وقوى الى ان نصبح في مركز رئيسي ، فلم يعد في وسعنا ان نفعل غير ما نفعل . لقد اصبحت القاهرة قاعدة كل كفاح عربي وعاصمته من عمان الى الجزائر ... »(11) .

ولعل من اهم نتائج الثورة المصرية هو اعادة الثقة الى نفوس العرب بعد ان كاد فشل حرب فلسطين وافلاس الحكام يعصف بها . فلأول مرة يرى العربي قوى وطنية تصنع تاريخه ، ويرى القرارات بصدد مستقبله توضع لا في لندن وباريس وواشنطن بل في العواصم العربية . ولاول مرة يشهد العربي قيام زعيم وطني لا حزبي منبثق من صميم الشعب يشتعل غيرة على كرامة الامة العربية ولا يتطرق الشك الى اخلاصه ونزاهته . ولاول مرة كذلك يشهد ثورة عسكرية تهدف الى خلق اتجاه فلسفي اجتماعي (ايديولوجي) بقصد تخطيط مجتمع عربي جديد له اسس فكرية ذات شخصية مستقلة .

ونظرا لهذه العوامل الجديدة امكن الان غلبة الاتجاه القومي العربي سياسيا وفكريا ، وامكن كذلك تبلور الاهداف العربية القومية الاساسية وهي : تحرير الوطن العربي كله من خطر الاستعمار ومن ربيبته اسرائيل ، وتوحيد الكيانات السياسية العربية المتفرقة ، والافادة من طاقات ابنائها وثرواتهم ، وتكوين فلسفة اجتماعية عربية تنبثق من تراث العرب وتستمد عناصرها منه ومن الثقافات العالمية ، وتحقيق المساواة والعدالة الشاملتين في المجتمع العربي دون تفريق بين عناصره ، والمساهمة في التقدم الانساني العام (12) .

ويقضي منطق الاشياء ان تتغير او يتفق ومتطلبات تلك الاهداف العظيمة. والواقع انه تناول بعضها بالتغيير والتعديل ، لكنه ما زال يتمسك بكثير من المواقف

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

---

١١) من جواب للرئيس جمال عبد الناصر على سؤال وجهه اليه الصحفي الهندي كازانجيا . انظر النص الكامل في نشرة لدار السياسة في بيروت في ٢١ نيسان ، ١٩٥٩ ، بعنوان عبد الناصر يتحدث .

١٢) قارن هذه الاهداف بوصف الدكتور قسطنطين زريق للمعركة التي يخوضها العرب واهدافها في « التراث الحضاري » ، مجلة الابحاث ، السنة ١٣ الجزء الاول ، اذار ، سنة ١٩٦٠ . ص ص ٢٠ ـ ٢١ .

أزمة المفكر العربي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

والأساليب التي قد لا تذهب سدى فحسب ، بل وقد تقف حجر عثرة في سبيل تقدمه .

اول ما ينبغي للمفكر العربي ان يفعله هو ان يتحرر الى حد كبير من عبوديته لكثير من الاصطلاحات والصيغ والمفاهيم الثقافية الاجنبية التي تمتد جذورها الى اوائل القرن التاسع عشر عندما اقبل المثقفون العرب على الحضارة الغربية يعبون من مناهلها دون البحث في مدى اتصال ما يقتبسونه بواقعهم الحياتي والفكري . ويبدو انهم لم يفقهوا بعد الدرس الذي كان من المتوقع ان يستخلصوه بعد خيبة الامل التي اصيبوا بها اثر فشل التجربة الديمقراطية . وتراهم لا يزالون ـ ولو الى حد اقل نسبيا ـ يقتبسون بعض الافكار والمفاهيم دون فهم او تحليل دقيق للقرائن العربية التي ستطبق فيها .

لقد حان لهم ان يدركوا ان المفاهيم الثقافية والمذاهب الفكرية برمتها لم تتشكل في الغالب الا بعد تغير واضح في العلاقات الاجتماعية وظروف الحياة وطرائق التفكير . فدارس مذهب حرية التجارة في القرن التاسع عشر مثلا يدرك تمام الادراك انه لو لم يكن قد وضح تماما ان مصلحة انجلترا هي في اتباع ذلك المذهب بسبب تصنيعها وغلبتها البحرية وانتشار مستعمراتها ، لكان من الجائز الا تقوم له قائمة . ويعلم دارس المذهب القومي في الاقتصاد انه لو لم تكن مصلحة المانيا في اتباعه بسبب من تأخرها صناعيا حتى ذلك الوقت لما كسب اصحابه ما كسبوه من شهرة وتأثير . ويمكن القول كذلك بانه لولا مستعمرات الاوروبيين التي اغدقت عليهم الاموال وفتحت مجالات واسعة لنشاط ابنائهم وقدرتهم ، لما تطورت الديمقراطية السياسية الغربية بالشكل الذي هي عليه الآن .

وطالما ان المفاهيم والمذاهب الفكرية الاجنبية قد تشكلت في قرائن طبيعية وبشرية مختلفة ، فلا يجوز ان نأخذها مسلمات ، او ان نسمح لها بأن تعوق تطورنا . واقرب الامثلة على ما نقصد اليه ، واشده صلة بما يجري في بلادنا هو القومية . فقد اتخذ بعض المفكرين العرب من التجربة القومية الاوروبية الحديثة مثالا على تطور القوميات في كل مكان ، بينما يقضي المنهج السليم بأن يدرس المفكر العربي معطيات الاحوال في اوروبا ومعطيات الاحوال في البلاد العربية قبل تسليمه بالتجربة الاوروبية او اطلاق اي حكم بشأنها . فان مثل هذه المعالجة كفيلة بأن تبرز من الفروق بين القرائن الاوروبية والقرائن العربية ما يجعل تكرار التجربة الاوروبية في البلاد امرا مستبعدا .

وينتظر من المفكر العربي كذلك ان يعيد النظر في نزعته الى الاغراق في تمجيد تراثه من تاريخ وحضارة وقيم على حساب الفهم التحليلي الدقيق لمسائله الكبرى . فمسألة فهم هذا التراث ودراسته الجدية لا تقل شأنا عن تحررنا السياسي . ذلك ان تطلعنا الى التحرر من العبودية الثقافية بخلق فلسفة اجتماعية عربية يستلزم ان نقيم جذورها في تراثنا الروحي والثقافي ، وهو امر لا يتم الا بفهم ذلك التراث وتقييمه بروح مخلصة صادقة .

والدراسة الجدية لذلك التراث لا تستهدف التقليد او المحاكاة ، ولا تفترض مسبقا تكرار احداثه ، وانما تتوخى فهمه بطريق التحليل والتفسير والنقد على اسس علمية حديثة . واولى الامور بمثل هذه الدراسة هو امر العملية الحضارية التي ادت الى قيام النهضة العربية خلال القرون التي اعقبت انسياح العرب في العالم ، وفهم الاسباب التي ادت فيما بعد ان توقف العقل العربي عن الابداع واقتصاره حتى اوائل العصور الحديثة على شروح المتون والتعليق على الشروح . وليس من شك في ان دراسة هاتين الناحيتين هي من اجل الخدمات التي يسديها المفكر العربي لنفسه ولابناء امته . هذا بالاضافة الى ان العملية الحضارية هي جوهر الدراسات التاريخية .

وما تأكيدنا هنا على دراسة العملية الحضارية الا لصلة الامر بمفاهيم حضارية خاطئة قد ادت في كثير من الاحيان الى تخبط بعض المفكرين العرب في مناهج دراستهم لتاريخهم وفي فهمهم للحضارات العالمية التليدة والحديثة . ويأتي في رأس هذه المفاهيم فصلهم بين ما يسمونه بالحضارة المادية وبين الحضارة الروحية وتمجيدهم للثانية على حساب الاولى ، واستخفافهم البادي بكل ما يتصل بالمادة ، هذا رغم ان توفر الالة شرط اساسي من شروط النهضة العربية الحالية التي يتطلع الجيل العربي المعاصر الى بنائها ، ورغم ان الالة من مرتكزات الحضارة العلمية المعاصرة .

ولسنا في حاجة الى كبير عناء لاثبات العلاقة بين الالة والمجتمع وتفكيره . فقيام مصنع في اي قطر لا بد وان يوجد طائفة من العمال تلعب دورا في العلاقات الاجتماعية والاوضاع السياسية لذلك القطر ، ولا بد لها بالتالي من ان تؤثر في تفكيره الاجتماعي والسياسي . وقيام سد من السدود الكبيرة مثلا يحرر طائفة كبرى من الفلاحين من الوقوع بالكلية تحت رحمة الطبيعة ، ويساعد على انتظام حياتهم ويؤمنهم على ارزاقهم ، ويولد الثقة بالمستقبل في نفوسهم . وما لنا نتناول هذه الامثلة بينما هناك شاهد متصل باشخاص الكثيرين منا . فالنظارة الطبية التي نستعملها قد قدمت من الخدمات للانسانية ما لا تدركه غالبية من اعتادوا على استعمالها . أيشك احد في انها اطالت اعمار الطلاب والعلماء والمحاسبين ممن كان يضعف بصرهم وهم في اوائل حياتهم ؟ أفيقال بعد هذا حضارة مادية وحضارة روحية !

ودراسة العملية الحضارية دراسة علمية حديثة كفيلة بأن تفتح عيني المفكر الحديث على نقص خطير في دراسته لتاريخه وحضارته . فقد جرى اكثر المفكرين حتى الوقت الحاضر على قصر التاريخ على الحكام والملوك من العظام ومن التافهين على حد سواء ، وعلى اخبار المعارك ، ومؤامرات القصور وقصص القواد والعلماء ، كما جروا على عادة القدماء في اعتبار العامة او سواد الشعب غوغاء ممن ينبغي صرفهم بكلمات ، هذا على الرغم من ان هؤلاء « الغوغاء » كانوا هم مصدر رزق الدولة ، والذابين عن حدودها ، والمنافحين عن سلامتها . اما آن لهؤلاء المفكرين ان يدركوا انه انما يعيشون على فائض انتاج الفلاح والعامل ، وان الاهتمام الزائد بالعامة من مستلزمات خلق الامة الحديثة . كم كانت لكلمة رئيس الجمهورية حين اشار الى ان وجه مصر الحقيقي هم اولئك الفلاحون من وقع في النفس واثارة لوجدان العربي الانسان . فاذا لم يستخلص المفكرون من هذه الكلمة جميع ما تتضمنه من معان عميقة فان حضارتهم التي هم بصدد بنائها ستظل كما كانت منذ قرون طويلة حضارة مدينية (اي قائمة على المدن فحسب) .

والمفكر العربي مدعو ايضا الى ان يطرح اسلوبا يستنفد اغراضه ، ولم يعد له ما اسبغ عليه من اهميه ، الا وهو الرد على المبشرين والمستشرقين الذين يتعرضون للدين الاسلامي بما لا يحب أهله . اجل لقد مر زمن كان هذا الاسلوب ضرورة لجا اليها المفكر وتمسك بها ريثما يسترد انفاسه ويستجمع جهوده ، ويستعيد ثقته بنفسه . اما وقد فعل اكثر هذا فعليه ان يوجه طاقاته التي كان يعرفها في الردود والدفاع عن عقائده ، في فهم دينه ، والتعمق في دراسته ، ونشر تراثه ، سيما وان الاسلام عزيز قوي برسالته وبالمسلمين ، وانه ما زال ، ينتشر في اكثر من بقاع العالم .

ومن اهم النقاط التي ينبغي ان نثيرها هنا بالنسبة للاساليب والمفاهيم التي ينبغي للمفكر العربي ان يعيد النظر فيها هي مفهومه الشامل لاهدافه وما يتفرع عنها من مسائل كليه وجزئية . فتعيين الاهداف دون تحليل فكري فلسفي حديث لها قد يؤدي الى فوضى وتخبط في المفاهيم ويضيع كثيرا من الجهود التي نحن في اشد الحاجة لها . وسأقتصر هنا على التنويه بهدف واحد من اهدافنا ومجهودات المفكرين في تحليله وجلائه وتحقيقه ، وهو تطلعنا الى وضع فلسفة اجتماعية او ايديولوجية ، عربية في جذورها الروحية الثقافية ، وحديثة في شمولها وانسانيتها .

ان من يتصفح بعض الفيض الذي تخرج علينا به المطابع العربية لا بد وان يشعر بالاسف حين يكتشف ان كثيرين ممن تصدوا لبحث هذا الموضوع او ممن عنونوا كتبهم ومقالاتهم بعنوان الايديولوجية او الفلسفه الاجتماعية لم يكلفوا انفسهم عناء تحليل العنوان نفسه ، وفهم نقطة البداية كأن الموضوع انشاء او خطبة حماسية . جادت به قرائحهم كأن الموضوع انشاء او خطبة حماسية . وليس من قصدنا هنا ان نثبط هممهم ، او ان ننال من تفكيرهم وانما قصدنا ان نذكرهم بمسؤولياتهم الجسيمة تلقاء انفسهم كمفكرين ، وتلقاء الجيل المعاصر والاجيال التالية .

فلو ردوا مفهوم الفلسفة الاجتماعية الى مقوماته الرئيسية من نظرية في الانسان ، ومفهوم للحضارة ، وتفسير للتاريخ ، ونظرية في المجتمع ، لترددوا في الكتابة في الموضوع واعتبروا المهمة مهمة سنوات عديدة من الجهد والكد المتواصلين . ذلك ان اية معالجة جدية لهذا الموضوع لا بد وان تقوم على تقييم صحيح للتراث العربي من جميع نواحيه ، وعلى فهم موضوعي عميق للتراث الانساني العام ، وهما امران لم يتوفرا بعد للمفكر العربي .

وعلى المفكر العربي ان يدرك ان ما نسميه ايديولوجية او فلسفة اجتماعية انما هو اتجاه نحو تلك الفلسفة ، وان وضعها يتطلب منا تحقيق شرط لا بد من توفره وهو اتاحة الفرص لطلابنا وخاصة طلاب الجامعات لدراسة تاريخنا وتراثنا ودراسة الحضارات الكبرى التليدة والحضارة العالمية المعاصرة دراسة علميا دقيقة . فالمفكر السعيد الذي سيكون له في النهاية شرف وضع فلسفتنا الاجتماعية العربية سيكون قد تمثل عناصر الثقافة العربية وبنى عليها صرحا فكريا فلسفيا انسانيا عالميا هو خير عدة لنا وللاجيال القادمة .

وبعض ما يصدق على موضوع الفلسفة الاجتماعية التي نهدف الى وضعها يصدق على تفكيرنا القومي . فمعظم هذا التفكير ينصب على الجانب النظري من القومية العربية لا الجانب الواقعي الذي هو اساس كل ايمان بالامة العربية وولاء لها . فاكثر مقالاتنا وابحاثنا يتوخى اثبات حقيقة القومية العربية ، واقلها هي التي تقدم دراسات علمية للشعوب العربية ومشاكلها وتدرس طرق تقوية العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بينها كخطوة في سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان مثل هذه الدراسات لا تستمد من الكتب وحدها . فلن يتأتى لكائن من كان ان يقدم دراسة علمية لشعب مراكش وهو في بيروت او عمان او دمشق . فمثل هذه الدراسة تتطلب من صاحبها الرحلة والاقامة في مراكش والاتصال بمختلف هيئات شعبها وقطاعاته الاجتماعية ، وبهذه المناسبة لا بد لنا ان نطالب الهيئات المسؤولة باتاحة فرص التفرغ والرحلة والاقامة في الاقطار العربية لاهل الاختصاص ممن يستطيعون تعريفنا على وطننا تعريفا قائما على المشاهدة والاحتكاك المباشر لا تعريفا بالواسطة . وكم تكون خدمة الجامعة العربية جليلة لو انها شملت هذه الدراسات برعايتها فوجهت عددا من اهل الاختصاص الى كل بلد عربي ، على غرار ما تفعله المؤسسات العلمية العالمية .

حاولت في هذه الصفحات ان ابرز ازمة المفكر العربي بردها الى عاملين وهما طبيعة المرحلة التي يجتازها وبعض الاساليب والمفاهيم التي ينبغي له اعادة النظر فيها . وان كنت قصرتها على المفكر العربي ممن يؤمنون بالقومية العربية فذلك ، كما قال الدكتور قسطنطين زريق ، لايماني بان الاتجاه القومي العربي هو السائد وان الامة العربية في طريقها الى تحقيق اهم اهدافها .

محمود يوسف زايد

أعطنا حبا

الديوان الاخير للشاعرة المبدعة

فدوى طوقان

الثمن ٣٠٠ ق.ل

صدر اخيرا عن

دار الآداب